المحاضرة العاشرة

وطن المتنبي

خد العذراء

- ٢ -

« موقع الكوفة — اوليتها - وصفها »

انتقل بكم في غسق ليلتنا هذه من البلد الذي رمى ظله عليه جبار بني أمية الى البلد الذي أوزفت ظلاله فيه جبار بني العباس ، انتقل بكم من دمشق الى بغداد :

محضتك يابغداد ودي على النوى وافي ان أمحض ودادي أصدق
فما بردى لولا الفرات بموزد لظمآن ان يشرب من الماء يشرق
ولا دجلة لولا مناهل جلق بمجرى برود كالرحيق مضفق

انتقل بكم من شواطيء بردى الذي نكاد نسمع نجواه وراء قاعة مدرستنا الى شواطيء الرافدين : دجلة والفرات ، تصوروا الامم التي طوتها هذه الانهر الثلاثة ، تصوروا العبقريات التي نبتت على ضفاف هذا الماء السادر في غلوائه ، الجامح في خيلائه ، الذي ماانفك يسخر في ماضيه وحاضره وآتيه من كل جبار عنيد . مالنا ولهذه الذكريات الاليمة ، استغفر الله . وهل الامم الا سلاسل ذكريات . هل كان الحاضر الا ابن الماضي هل كان الآتي الا نتيجة الحاضر ؟ . انتقل بكم من منازل العصابة الذين نادمهم حسان في الزمان الاول بجلق ، من منازل ابناء جفنة على بردى الى منازل النعمان على الفرات من منتزهات الغوطة جنة الدنيا الى منتزهات الخورنق والسدير .

اني لاجوز هذه المواضع كلها دون ان اقف بكم على موضع منها ما خلا موضعاً طلع على الدنيا والناس من عشرة قرون ونيف برجل ملأ الدنيا وشغل الناس ، وقبيح بنا ان نتملق شيخنا ابا الطيب في ضجعته ونبعثه من مرقده من غير ان نطوف بالوطن الذي انبت امثال ابي الطيب ، ولا مثيل له ، ونعرف شيئاً من خصائص هذا الوطن ، والمرء ابن ارضه وسمائه ومائه وهوائه يأخذ من تربته ويعطيها ولناجيه ويناجيها يؤثر فيه كل ناحية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من نو حي هذه التربة فلا يتملص من عوامل طبيعتها ولا ينسلخ من عوامل السياسة والاجتماع والتاريخ في آفاقها ، على ان بعضهم لم يجعل للبيئة المقام الاول في نشوء العبقريات ، قال الاستاذ برونتير :

« لا تنسوا ان المرء وان كانت بيئته تؤثر فيه فهو يستطيع ان يتملص من آثارها وانه يستطيع ان يصرفها في مصالحه وقد أجمع علماء الطبيعة على هذا الامر ، لا شك في انهم لا ينكرون آثار البيئة ولكنهم بعيدون عن ان يجعلوا لها حتى في علم الحيوان المحل الذي جعله لها (تين) في مذهبه » .

وسواء اتركت الكوفة في شعر ابي الطيب أثراً من آثارها ام لم تترك . وسواء اكان هذا الاثر غامضاً ام كان واضحاً لا بد لنا من السياحة في الكوفة .

اين هو هذا الوطن على التحقيق ، نقرأ ان المتنبي ولد في الكوفة في محلة يقال لها كندة ، ولكنا قليلاً ملتهتم بمعرفة موقع الكوفة وقليلاً ما نبالي بمعرفة طبيعتها ولا نسأل هل تغنى المتنبي بوطنه ، هل عق وطنه . وحسبنا ان نعلم ان الكوفة مدينة من مدن العراق . قال ياقوت في معجمه : الكوفة بالضم المصر المشهور بارض بابل من سواد العراق . لاشك في ان هذا التعريف العام لا يزال مبهماً ، فهو لم يزدنا علماً بموقع الكوفة ، فلم يبين ياقوت اين الكوفة من بغداد واين هي من دجلة اوالفرات حتى انه أورد ابياتاً في هجاء اهل الكوفة من جملتها بيت من الشعر أتحاشى عن ذكره في مثل هذا المقام ، يدل هذا البيت على ان الكوفة قريبة من دجلة وهذا خطأ لم ينبه عليه ياقوت .

قال صاحب كتاب بلاد العرب الاستاذ (دي فرجر) مصّر عمر البصرة على خليج فارس ، ومصّر الكوفة على بحرة الرهيمة . فأين الرهيمة ؟ يقول لنا الفيروزابادي في قاموسه المحيط : ورهيمة كجهينة عين بين الشام والكوفة . وهذا التعريف لا يقل غموضاً عن تعريف ياقوت للكوفة . وردت الرهيمة في شعر المتنبي معرفة بال . لما خرج ابو الطيب من مصر ورجع الى الكوفة وصف منازل طريقه فقال في جملة ما قال :

فيا لك ليلاً على اعكش ... احم البلاد خفي الصوى
وردنا الرهيمة في جوزه ... وباقيه اكثر مما مضى
فلما انخنا ركونا الرماح ... بين مكارمنا والعلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من هنا يستدل على ان الكوفة واقعة على الرهيمة او قريبة منها لانهـا آخر ما ذكر المتنبي في قصيدته من المواضع ، وقد ذكر عشرين موضعاً فبعد ان ورد الرهيمة قال : ركزنا الرماح اي بلغنا الى الكوفة .

فالكوفة على التحقيق واقعة على الجانب الجنوبي من بغداد ، في الجانب الغربي من الفرات ، وبينها وبين بغداد مائة واربعون كيلومتراً وصفها عراقي لي فقال : فيها بساتين ولا تزال آثار مسجدها القديم قائمة .

ولئن طولت الكلام على موقع الكوفة فقد تعمدت هذا التطويل لتعرفوا قلة التوضيح وقلة التحقيق في كثير من كتبنا .

ما معنى الكوفة . ويسميها قوم خد العـذراء ومماها عبدة بن الطبيب : كوفة الجند فقال :

ان التي وضعت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند قد غالت بها غول

قال ياقوت في معجمه :

« قال ابو بكر محمد بن القاسم : سميت الكوفة لاستدارتهـا ، اخذ من قول العرب رأيت كوفانا ، وكوفانا بضم الكاف وفتحها للرميلة المستديرة ، وقيل : سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم تكوف الرمل اذا ركب بعضه بعضاً ، ويقال : اخذت الكوفة من الكوفان . هم في كوفان اي في بلاء وشر ، وقيل : سميت كوفة لانها قطعة من البلاد . من قول العرب قد اعطيت فلان كيفة اي قطعة ، ويقال : كفتا كيف كيفاً اذا قطعت فالكوفة قطعة من هذا ، انقلبت الياء فيها واواً لسكونها وانضمام ماقبلها . وقال قطرب : يقال القوم في كوفان اي في امر يجمعهم ، قال ابو القاسم : قد ذهب جماعة الى انها سميت كوفة بموضعها من الارض وذلك ان كل رملة يخالطها حصباء تسمى كوفة . وقال آخرون : سميت كوفة لان جبل ساتيذما محيط بها كالكاف عليهـا . وقال ابن الكلبي : سميت بجبل صغير في وسطها كان يقال له كوفان ، وعليه اختطت مهرة موضعها . وكان هذا الجبل مرتفعاً عليها فسميت به . فهذا في اشتقاقها كاف » .

نعم هذا في اشتقاقها كاف . وهذا اكثر من الكافي ، ثمانية اسباب في تسمية بلد ، يحار المرء في معرفة الاصح منها ، فيخرج من حيرته هادي البال ، مطمئن الفكر بقوله : والله أعلم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مالنا ولهذه الفوضى ، فلننظر الى اولية الكوفة في الاسلام ، فلنرجع الى أوائل الفتح الاسلامي ، فلنرجع الى ايام عمر بن الخطاب دون ان نجاوز هذا الزمن مخافة ان نضيع في مجاهل العصور .

بنيت الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب على مقربة من أطلال الحيرة ، منازل المناذرة والاكاسرة قبل الاسلام . قال قوم : مصّرت الكوفة في السنة التي مصّرت فيها البصرة وهي سنة ١٧ ، وقال آخرون : مصّرت الكوفة بعد البصرة بسنتين ، وقالوا بسنة . والسبب في بنائها ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب كانت تفد عليه وفود العرب بعد الفتوح وألوانهم شاحبة ، وسحناتهم متغيرة ، فكتب الى سعد بن ابي وقاص : ان العرب لا يصلحها من البلدان الا ما اصلح الشاة والبعير ، فلا تجعل بيني وبينهم بحراً . وعليك بالريف ، فوقع اختيار سعد على ارض يقال لها قبل الاسلام سورستان فبنى فيها الكوفة ، وكان اول ما خط فيها المسجد ودار الامارة وقد نزل الكوفة في أوائل الفتح الاسلامي جماعة من نزار واهل اليمن ، اما اهل اليمن فكانت خططهم في الجانب الشرقي من البلد وهو خير الجانبين ، واما نزار فقد كانت خططهم في الجانب الغربي من وراء الغابات ، اني الفتكم من اليوم الى منازل اهل اليمن في الكوفة فسيمر بكم ان المتنبي ينتسب الى حي يمان فكأن اهل اليمن الذين نزلوا الكوفة في اول امرها في الاسلام أحبوا ان يسموا محلتهم فيها كندة احياءً لذكر كندة ابي حي من اليمن ، والمتنبي ولد في هذه المحلة حتى قال قوم بدئ الشعر بكندة ، يعنون امرأ القيس ، وختم بكندة يعنون ابا الطيب .

هذا موقع الكوفة وهذه اوليتها ، افلا يليق بنا ان نسمع وصفها ، ونعرف طبيعتها وللشاعر ارتباط بطبيعة وطنه ، وصف الكوفة محمد بن عمير العطاردي لعبد الملك بن مروان فقال : الكوفة سفلت عن الشام ووبائها وارتفعت عن البصرة وحرها فهي بربة مربعة اذا اتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور واذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد ووردة وياسمينه واترنجه ، ماؤنا عذب وعيشنا خصب .

ووصفها الحجاج فقال : واما الكوفة فبكر عاطل عنطاء لا حلي لها ولا زينة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان علي اذا اشرف على الكوفة يقول : يا حبذا مقالنا بالكوفة — ارض سواء سهلة معروفة — تعرفنا جمالها العلوفة [1] .

والظاهر ان الكوفة صبغت في بدء امرها بصبغة دينية فكان سلمان الفارسي يقول: اهل الكوفة اهل الله ، وهي قبة الاسلام يحن اليها كل مؤمن، وكان علي يقول : الكوفة كنز الايمان وحجة الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء والذي نفسي بيده لينصرن الله باهلها في شرق الارض وغربها كما انتصر بالحجاز .

وقال سفيان بن عيينة : خذوا المناسك عن اهل مكة وخذوا القراءة عن اهل المدينة وخذوا الحلال والحرام عن اهل الكوفة .

هذه صورة الكوفة التي عرضوها علينا ، ولكنها سرعان ما عركت بالنوازل وركبت بالزلازل كما قال علي ، ولقد اشبه المتنبي امه الكوفة فما ظلم فما كان الا ابن النوازل ولا كان الا صنو الزلازل ، مارسته ومارسها وطاعنته وطاعنها فما هو ملأها ولا هي ملأته .

نعم هذا هو وصف الكوفة على قدر ماتيسر ، ولقد نشأ في الكوفة من الشعراء مطيع ابن اياس وحماد عجرد وابو دلامة ودعبل الخزاعي وابو العتاهية وغيرهم حتى قال بعضهم: الشعر ميراث في الكوفة ، ولما استنفر علي اهل الكوفة لقتال اهل الشام ولم ينفروا معه خطب فيهم فقال : اذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقاً عزين تضربون الامثال وتناشدون الاشعار ، تربت ايديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها وشغلتموها بالاباطيل والاضاليل » فالظاهر ان الشعر كان يجد في خد العذراء تربة صالحة وهواء صالحاً حتى زعم حماد ان النعمان بن المنذر امر فنسخت له اشعار العرب في الكرارس ثم دفنها في قصره الابيض بالكوفة فلما وثب المختار بن ابي عبيد الثقفي بالكوفة سنة ٦٦ في سلطان ابن الزبير قيل له : ان تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الاشعار قال : فمن ثم اهل الكوفة أعلم بالشعر من اهل البصرة .

وفي الكوفة نشأ اكابر النحاة معاذ الهراء والكسائي والفراء وابن السكيت فكان الشذوذ من طبع الكوفيين .

---

(١) هكذا ورد الضمير في تعرفنا والمقام يقتضي رجوعه الى الجلبل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي الكوفة نشأ اكابر علماء اللغة والادب كحماد الراوية والمفضل الضبي وابي عمرو الشيباني وابن الاعرابي وابن قتيبة وفيها نشأ كثير من الحفاظ .

من كل ماتقدم يتبين لكم ان الكوفة مدينة الشعر ومدينة النحو والشذوذ ومدينة اللغة ومدينة الدين . فقد ظهر فيها شيء من هذا كله وظهر على شيخنا ابي الطيب شيء من هذه الآثار باجمعها . فالشعر من طبع المتنبي والشذوذ من سجيته واللغة مختمرة فيه الا الدين فاني لا اجد في شعره نزعة اليه ، وانما لما اتصل بسيف الدولة ووصف غزواته في بلاد الروم وردت في شعره أبيات قلائل فيها شيء من النزعة الاسلامية اقتضتها طبيعة الحرب بين الروم والمسلمين .

ولست أعني بهذا ان الكوفة هي التي خلقت الشعر في طبع المتنبي او طبعته على الشذوذ ولو كان الامر كذلك لوجب ان يكون شعراء الكوفة كلهم مثل المتنبي وانما المتنبي مطبوع على الشعر ومطبوع على الشذوذ . واذا كان للبيئة اثر في المرء فقد يجوز ان يكون للكوفة بعض الاثر في نمو هذا الطبع وليس في هذا شيء من المبالغة على ان هذا المقام انما هو مقام الكلام على وصف الكوفة وطن ابي الطيب لاغير ، فلا أخرج عن هذا الكلام .

هذا آخر ما أحببت ان اذكره لكم مما يتعلق بالكوفة ، ولقد وددت لو ان لحد العذراء اثراً في شعر المتنبي أبلغ من الاثر الذي وجدته فليتني لم أعرف الكوفة الا من شعر ابي الطيب . واذا الشاعر لم يتغن بوطنه فمن الذي يتغنى به ؟ ان النفوس لتحركها محبة الألوان والأشكال اي أشكال هذا الوطن الكريم والوانه البراقة الوضاءة فمتى استطعنا ان نتغنى بجبالنا ولوديتنا وبمروجنا وسهولنا ومتى استطعنا ان نتغنى بهذا النسيم العليل الذي نشقه اباؤنا وأجدادنا ، وبهذا الماء العذب الذي وردوا عليه وصدروا عنه وبهذه الغوطة الغناء مجلى الطبيعة ، ومغنى الانس عرفنا حينئذ قيمة الوطنية الحقيقة الهادئة التي لا تقوى على قتلها العصور والأحقاب فما تكر عليها الايام الا ازدادت رسوخاً في القلوب وتمكناً من الصدور .

ان شيخنا ابا الطيب لم يبر وطنه المبرة التي نريدها في هذا العصر فكأن فكرة الوطن حديثة ، ولكنها غير حديثة الا ان شعراءنا لم يعالجوها في القديم معالجتنا لها في هذه الايام . لم يترك المتنبي في شعره اثراً للكوفة . ولكنه تغنى ببعض منازل قريبة من وطنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فتارة كنت أجده شديد الحنين الى كندة محلته بالكوفة حتى جعل هذه المحلة بمنزلة والدته فقال لعلي بن ابراهيم التنوخي :

امنسي السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

وتارة كنت اجده لا يوحشه وطنه اذا شطت به النوى فهو لفّاق يضرب في البلاد مكتسباً فقد قال

وما بلد الانسان غير الموافق ولا اهله الادنون غير الاصادق

نعم مرة كان يستوحش فيشتاق الى وطنه والى اهله من مصر :

بما التعلل لا اهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

* * *

أحن الى اهلي واهوى لقاءهم واين من المشتاق عنقاء مغرب

ومرة كان يستغني عن هذا الوطن فيطيب له المقام بكل ارض يأمل فيها ضيعة او ولاية ، فقد قال لكافور في مصر :

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وقال له :

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

والخلاصة لم يتغن ابو الطيب بالتربة التي أنبتته وبالهواء الذي شمه و بالظلال التي أظلته واذا حنّ في بعض الأحيان الى شيء من هذا كله وذكر بعض أماكن قريبة من وطنه اختصر الكلام ولم يطوله :

وليلاً توسدنا الثوية تحته كأن ثراها عنبر في المرافق

بلاد اذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنه للخوانق

والثوية موضع على مقربة من الكوفة .

وكم دون الثوية من حزين يقول له قدومي : ذا بذا كا

على ان المتنبي كان جواب آفاق قد دحا الارض فلم تشتد الفته لوطنه .

كأني دحوت الارض من خبرتي بها كأن بني الاسكندر السد ن عزمي

فكان اذا نزل منزلاً وكرّمه اهل هذا المنزل و بجلوه . استطابه فلم يحن الى ربعه .

دمشق : في ١٨ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net